المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب محمد

الشعراء الشاميون

بقلم
عيسى فتوح
دمشق ـ سورية

صدر مؤخرا عن دار صادر في بيروت كتاب « الشعراء الشاميون » الذي كان قد الفه شاعر الشام المرحوم خليل مردم بك ، ثم مات وتركه مخطوطا ؛ فعمد نجله الاستاذ عدنان الى تحقيقه وكتابة مقدمة مسهبة عن والده ، بين فيها الدافع الذي حداه الى تأليف هذا الكتاب الذي جاء في ثلاث مئة وثلاث صفحات من القطع الكبير والطباعة الفاخرة المتقنة .

اختار الخليل سبعة من شعراء الشام الذين عاشوا في عصور مختلفة ؛ وكانت تجمعهم مدرسة شعرية واحدة هي « المدرسة الشامية » التي تقوم على تهذيب الشعر ؛ واعمال الروية ؛ وامعان الفكر ، وعدم الركون الى اول خاطر يقع عليه الشاعر ، كما يقول الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » . وقد غلبت الصنعة الشعرية على اكثر الشعراء الشاميين منذ القديم ، حتى عرفوا بها ؛ فهم يكرهون اللفظ الساقط ، والتراكيب المهملة ، ولا يرضون للمعنى الشريف الا اللفظ الشريف ، اما الشعراء الذين اختارهم ودرسهم دراسة جيدة فهم : عدي بن الرقاع ـ وهو شاعر ضاع ديوانه ـ والوليد بن يزيد ، والطرماح بن عدي ، وابن حيوس ، وابن الخياط ، وابن عنين ، وعبد الملك بن عبدالرحيم الحارثي ، وكان الخليل قد قدم الى المجمع العلمي العربي بدمشق دراسة موجزة اخرى عن شعراء الشام في القرن الثالث الهجري ، يوم انتخب عضوا فيه عام ١٩٢٥ ، وهم : العتابي ، ودبك الجن الحمصي ، وابو تمام ، والبحتري ، وكانت اول عمل ادبي قدمه .

لكن الخليل لم يكتف بهذه الرسالة التي كتبها عن هؤلاء الشعراء ، ليعرف بالطريقة الشامية في النظم ، بل اراد ان يعرفنا بشعراء شاميين آخرين ، عاشوا في فترات مختلفة ، ولم يرزقوا شهرة ابي تمام والبحتري ، ومنهم من لم تحظ دواوينهم بالطبع الا عام ١٩٤٤ ، او لم يعثر لهم على ديوان قط كعدي بن الرقاع . وكان دافع المؤلف الى هذه الدراسة الصعبة الشاقة عاطفته الشامية المتأصلة في نفسه ، فهو شامي عريق ، اغرم بالشام وتاريخها ، وبتراجم اهلها وسيرهم ، والم بكل شيء شامي ، حتى الجزئيات ، فكأن الشام عنده قصيدة مختارة من عيون الشعر ودمشق فيها بيت القصيد .

اعتمد الخليل في دراسته للشعراء الشاميين على النص وحده ، اي على ديوان الشاعر المخطوط ، فاستطاع من خلال قراءته ان ينفذ الى البواطن الخفية للشاعر ، الى ثقافته العامة ، الى خياله الشعري ، ولغته ، والعصر الذي عاش فيه ، واعطى لكل شاعر من هؤلاء الشعراء السبعة صورة كاملة لمجتمعه السياسي والفكري والاقتصادي ، وما لهذه العوامل من اثر فعال في حياة الشاعر .

ويلاحظ ان معظم الشعراء الذين اختارهم المؤلف لم يسبق ان درسهم احد من قبل دراسة ادبية بالمعنى الصحيح ، بل ظلوا مغفلين بالرغم من علو منزلتهم الشعرية ، فقد تلف ديوان الخليفة الاموي الوليد بن يزيد ، وزهد الرواة في حفظ شعره ، تزلفا من خلفاء بني العباس ، وادت غزوات التتر على العراق والشام ، الى احراق المكتبات العامة ،

والقائها في نهر دجلة . فلا غرابة ان يكون بينهـــا ديوان عدى بن الرقاع الذي ذكره ابن النـــديم في كتابه « الفهرست » ، لذلك عمد المؤلف الـــى جمع المتناثر منه في كتب الادب واللغـــة والتـــاريخ والتراجم وتقويم البلدان ، وكان احيانا يجـــد القصيدة الواحدة مبعثرة على سبيل الاستشهاد في كتب كثيرة ، وامكنة متعددة ، فيضم بعضها الـــى بعض ، كما يجد ابياتا من بحر واحد وقافيـــة واحدة مفرقة في لسان العرب لابن منظور ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ... فيجتهد في ترتيبهـــا وجعلها قطعة واحدة متتالية الابيات ، منسجمة المعاني ، وذلك بعد التحري والروية . ولذلـــك كانت دراسته اقرب الى التحقيق ، ونحن نعرف ان الخليل كان من كبار المحققين الذين قدمـــوا للمكتبة العربية اربعة دواوين محققة لابن عنين ، وابن الخياط ، وابن حيوس ، وعلي بن الجهم ، طبعها المجمع العلمي العربي ، ثم اعيد طبع بعضها ، وكانت اصولها موزعة في مكتبات الشرق والغرب ، فـــمى اليها وصورها ، وعكف على تحقيقها حتى تحققت امنيته .

وبعد فان الدراسات التي طالعنا بها المرحوم خليل مردم بك في مؤلفه النفيس عن الشـــعراء الشاميين ، تعتبر بحق من افضل الدراســـات النقدية المحققة ، ويكفي انه سلط فيها الضوء على شعراء كانوا في عداد المغمورين والمجهولين من اكثر الادباء في الاقطار العـــربية لفقـــدان دواوينهم ، وانصراف اكثر نقاد الادب عن الكتابة عنهم ، فحمل الخليل هذا العبء وحده ليؤدي بعض الدين نحو اساتذته الذين تثقف بشعرهم ، واخذ عنهـــم الطريقة الشامية في النظم ايضا .

ولا يسعني الا ان اشكر الشاعر عدنان مردم بك على هذه المقدمة الجيدة التي وضعها للكتاب ، وعلى العناية والاهتمام بالتراث القيم الذي تركه له المرحوم والده امانة في عنقه ، فسعى الى طبعه على نفقته الخاصة ، غير مبال بما يترتب على ذلك من نفقات ، فاعاد طبع ديوان ابن عنين ، وديوان علي بن الجهم ، واعيان القرن الثالث عشر ، كما طبع بالتعاون مع المجمع العلمي العربي كتابـــي الاعرابيات وجمهرة المغنين .

لقد ترك الخليل مكتبة فريدة من الكتب التي الفها او حققها ، بالاضافة الى ديوانه الشـــعري الذي طبعه له المجمع العلمي العربي بعد وفاته .